

أثر المعرفة العقدية في الإصلاح الاجتماعي والسياسي عند محمد بن عبد الكريم الخطابي: مسالك ونماذج

الباحث: د. إلياس الهاني
جامعة أهومي البريطانية
المملكة المغربية

الملخص:

تعتبر المعرفة العقدية إحدى التجليات الفكرية والسلوكية التي تميز عالم الإنسان الذي اصطبغ وجدانه بالمحددات المعرفية ذات المشرب العقدي كالقرآن والسنة وسيرة السلف والعقل والفطرة التي تومض فيه طاقة تجعله يتمكن من خوض غمار التحديات وبناء المجتمعات، وبالنظر إلى شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي باعتباره أحد المصلحين الذي تعددت عطاءاته وانبثقت منها رؤية للإصلاح شملت ميادين متعددة منها الجانب الاجتماعي والسياسي مرسيا بذلك جملة من القواعد والأسس التي انبت على المعرفة العقدية التي تعرضت للتعطيل، ولم تعد تؤدي الأدوار المنوطة بها بفعل ما عثرى الإنسان من الاستعمار الأجنبي والركود الحضاري والتواكل القدري، وعليه تتأسس رؤية الخطابي الإصلاحية عبر اتخاذه لمجموعة من المسالك التربوية للنموذ إلى النفوس والعقول لاستنهاضها للقيام بما توجبه اللحظة التاريخية من جوانب همت الجانب الاجتماعي والسياسي.

ومنه فإن هذا البحث يهدف إلى رصد وتتبع المسالك التي اقتفاها الخطابي للنهوض بالسلوك الاجتماعي والسياسي انطلاقا من المعارف العقدية المنغرس في الوجدان، والتي استطاع من خلالها إبراز الأثر الذي تعكسه المعرفة العقدية في عملية الإصلاح، ويتضح ذلك جليا عبر عدة نماذج عرفت منطقتا شمال المغرب، وهي نفس القواعد التي بثها الخطابي في رسائله ومقالاته واستراتيجياته المتعددة، متوسلا في ذلك بمنهج الوصف والتحليل.

الكلمات المفتاحية: المعرفة العقدية، محمد بن عبد الكريم الخطابي، الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

مقدمة

تعددت الأبحاث والدراسات التي تناولت سيرة محمد بن عبد الكريم الخطابي بالكشف والوصف والتحليل لإبراز الجوانب العبقريّة من مسيرته الحياتيّة، إلا الكثير منها اقتصر على دراسة الجوانب الحربيّة والعسكريّة أثناء مقاومته للاستعمار الأجنبي بالريف المغربي بين سنتي 1921 و1926، مضمرة في ذلك للأسباب النفسيّة والمرجعية التي تأسس عليها ذلك التآلق الحضاري الذي برز معه طيلة مساره منذ تشكّل وعيه السياسي المبكر بأجدير، مروراً بتحصيله العلمي المتألق بتطوان وفاس، وسعيًا منه حينئذٍ لرتق ما انفك من وحدة المغرب عبر المبادرات الدبلوماسية التي تولّاها بين والده والنخبة المخزنية، وانضمامه إلى ثلة شبابيّة تسعى للنهوض بالأحوال الاجتماعيّة والسياسيّة للمغرب، إلى حين انتقاله لمليية واحترافه للصحافة، وعمله بالتعليم، وتقلده لمنصب القضاء وتوليه للترجمة واحتكاكه برجال الدولة الإسبانيّة أملاً منه لانتزاع حماية ترسي معالم التحديث وفق المعاهدات الدوليّة الرامية إلى تحقيق النمو العمراني وتمكين الدول المحمية من آليات ذاتية للنهوض والالتحاق بركب التقدم، ويقتضيه بعدها للمرامي الحقيقيّة لنوايا الإسبان اتجاه منطقتهم التي كانت تعج بالاحتلال الداخلي والتخلف عن الركب الحضاري والاستسلام للقدر، إلى الوقت الذي عزم فيه للقيام بصحوة حضارية استدعى فيها مختلف الأبعاد الفكرية والثقافية للحضارة الإسلاميّة المستقاة من مجموع المعارف العقدية التي تسهم في بناء نسيج اجتماعي وسياسي يُخرج الإنسان من الركود الذي طغى عليه بعد قرون من الزمن لبثها في كوامن النفس الإنسانية عبر مسالك منهجية كالمحاضرة والبيان والإرشاد والكتابة والتدوين والمراسلة، ويرسي بها نماذجاً وصوراً مشرقة تجلت في عملية الإصلاح والتغيير التي شملت مجالات وميادين متعددة بمنطقة الريف إلى حين استسلامه جراء القصف الجوي والبري والبحري بالغازات السامة للمنطقة من طرف القوات الفرنسيّة والإسبانية المهددة بالإبادة الجماعية في حالة استمرار المقاومة ونسج نموذجها الحضاري الذي سارت عليه طيلة ست سنوات.

وأمام حالة النفي القسري له نحو جزيرة لارينيون التي امتدت لأزيد من عشرين سنة يبرز فيها بشكل جلي معالم مختلفة من آثار المعرفة العقدية التي صاغها لأهل الجزيرة تتجلى في دعوة أهل الجزيرة لدين الإسلام وإصلاح ذات البين وتربية الأبناء على القيم، لينسج رؤية متكاملة للمسألة العقدية من خلال مقاصدها وآفاقها الممتدة في كافة مناحي السلوك الإنساني.

وقد دأب الخطابي أثناء استقراره بمصر على التركيز بشدة للفكرة العقدية باعتبارها الأساس المركزي لكل محاولة نهوض تسعى إليه الدول الإسلامية؛ فهي الفكرة المحفزة الرئيسية التي تومض في النفس البشرية بوارق الأمل للانطلاق نحو تجسيد ما يترتب عنها من عمران حضاري.

وعليه ينبثق الإشكال العام في ماهية الآثار الاجتماعية والسياسية للمعرفة العقدية عند الخطابي، وعن طبيعة المسالك العملية التي اتخذها لتجسيدها، ومن أجل معالجة هذا الموضوع فقد تم التوصل بمنهج يراعي الجمع بين بعض الإنتاج الفكري للخطابي التي يجسد بها المعرفة العقدية في تجلياتها السياسية والاجتماعية، وتطبيقاتها العملية التي تجسدت في الكثير من الأحداث والمواقف؛ منطلقا في ذلك من مفهوم المعرفة العقدية وآثارها واستثمارها في عملية الإصلاح عبد مسالكها المنهجية لتجسيد بعض النماذج في ذلك.

المبحث الأول: تجليات المعرفة العقدية في مسار محمد بن عبد الكريم الخطابي:

تتخذ مسألة المعرفة العقدية بعدا أساسيا في عملية الإصلاح والتغيير المجتمعي، وذلك لطبيعة الآثار التي تتركها في نفوس الأفراد والمجتمعات؛ «لأنها تبلور فكرها ونظرتها إلى الوجود، فالفكر المنسوب لأمة معينة هو بمثابة الروح للجسد والحياة إلى النفس¹» والمحرك للتعبير على ما يخالج العقول والقلوب اتجاه ما يحيط الإنسان من ظواهر طبيعية وأخرى غيبية باعتقاد جازم، وعليه سعى محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى تجسيد هذا المعنى في نفوس الأفراد بعد أن خفت أوار آثارها التي تراكت عليها سنين الفوضى والركون للانحطاط الفكري والثقافي، وتعسف الجاه والهوى والانهماك في إشعال المزيد من التوترات، الأمر الذي عطل من استئناف العطاء الحضاري، فكانت المسألة العقدية السفينة التي حمل عليها الخطابي إصلاح الأفراد بعدما أبدوا الاستعداد لمواجهة التحديات الخارجية التي طالتهم من الاستعمار الأجنبي، عقب سؤالهم له عن الطريقة المجدية للتفاعل الإيجابي مع هذا الأمر بقوله: «بنبذ الماضي كله أولا، وبالعقيدة ثانيا، وبالنظام والخطة ثالثا، وبعد ذلك يأتي النصر بإذن الله²»، وهو ما يجسد المكانة المركزية التي تحتلها المسألة العقدية في مشروع الخطابي الإصلاحية.

¹- رصد الخاطر خواطر وأفكار حول أزمة الحضارة المعاصرة، المهدي بن عبود، جمع وترتيب ومراجعة محمد الدباغ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2023، ج1، ص227.

²- عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، محمد سلام أمزيان، مطبعة المدني، القاهرة، 1971، ص90.

المطلب الأول: مفهوم المعرفة العقدية وآثارها:

تقوم المعرفة العقدية عند محمد بن عبد الكريم الخطابي على ركنين أساسيين يمثلان لب الرسائل السماوية، وتعكس بذلك مجموعة من القواعد والموجهات الإيمانية لدلالة الإنسان على خيرى الدنيا والآخرة، يقول الخطابي في مقال له لمجلة منبر الإسلام: «إن مدار الرسائل السماوية يدور على ركنين أساسيين هما: الإيمان بوجود خالق الكون والإيمان بالحياة الأخرى التي يحاسب فيها الإنسان على ما قدمته يده وبجأزى عليه خيرا أو شرا، وقد تفضل سبحانه وتعالى فأنزل في هذه الرسائل السماوية أحكاما يلتزم الإنسان فيها بالقيام بها أوامر ونواهي لتعلم طريق الخير وطريق الشر ﴿ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهديناه النجدين﴾ فلم يهملنا الله سبحانه وتعالى ولم يتركنا هملا من غير شريعة تنير لنا السبيل حتى لا نضل، ومن هنا ندرك أن الله تبارك وتعالى أكرم الإنسان تكريما بهذه العناية الربانية، لأنه جلت قدرته يعلم أن عقل الإنسان لا يكفي وحده لمعرفة الصالح من غير الصالح في الحياة¹»، وهو معنى بقدر ما يكشف عن جلاله المسألة الإيمانية وضرورتها الإنسانية، فإنه يجلي له حدوده النسبية والعاجزة عن الإدراك الكلي لمعاني الوجود، والقاصرة عن الفهم الكامل لأسرار الحياة، إلا أنه بالمعرفة الإنسانية للرسالات الإلهية، وما تقتضيه من الإيمان بها والاعتقاد بمقتضيتها ينجلي عنه بعض ذلك النقص.

وعن الآثار النفسية والعمرانية والحضارية التي تورثها المعرفة الإيمانية العقدية في وجدان الإنسان يكشف الخطابي ذلك بقوله: «إن الإيمان بالله منزها عن الشرك هو أعز جوهرة وأعلى حلية يتحلى بها الإنسان في هذا الوجود، وبالإيمان وحده يتسنى لهذا الإنسان أن يعيش وهو مطمئن على نفسه ومصيره، وقد رأينا في التاريخ أن المؤمنين عاشوا سعداء، وحالفهم الفوز والنجاح في كل حركاتهم التي كانوا لا يقصدون من وراءها إلا بث الإيمان في النفوس المعذبة، فاستجابت لهم بدون تعسف ولا إرهاب، لأن الطائفة الداعية كانت طاهرة زكية نقية بالإيمان بالله، فاستقامت لهم الأمور تمام الاستقامة في هذه الدنيا، وقد وعدهم الله بالسعادة في الأخرى²»، وهذه الاعتبارات التي دبجها الخطابي تجد لها مستندها في الاستقراء العام لجملة من النصوص الشرعية والشواهد التاريخية التي تجلي المعاني الكبرى للآثار الإصلاحية التي تتركها المعرفة بالله وكماله وتجريده من كل النقائص وبما يستلزمه من حقوق وواجبات؛ بحيث تؤسس لعلاقة جدلية بين هذه المعرفة المبنية على القواعد الإيمانية وبين الأوضاع الحضارية، إذ يؤكد الخطابي أنه كلما خفت المسلمون في معرفتهم بالله إلا وضمرت أوضاعهم الاجتماعية والسياسية،

¹ - محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال أفريقيا 1920م-1963م (وثائق ومذكرات)، حسن البدوي، ماهي للنشر والتوزيع، مصر، ط1، ص607.

² - محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال أفريقيا 1920م-1963م (وثائق ومذكرات)، حسن البدوي، ص607.

لأنها الحبل الواصل للإنسان المسلم بالمنابع الصافية الإيمانية التي تفجر فيه معاني التفكير نحو تنظيم شؤونه المجتمعية وتطويرها نحو الرقي الحضاري، وهو الأمر الذي حذر منه الخطابي عندما شاهد حال المجتمعات الإسلامية وهي ترفل في البؤس واليأس والسأم، وذلك كله -يؤكد الخطابي- نتيجة ضعف المعرفة العقدية وانزوائها في حياة المسلمين؛ إذ يقول: «نقول للذين لا يعلمون أننا فقدنا الإيمان، وأنها نعيش بلا قانون سماوي، اللهم إلا القلة التي تعيش على أعصابها معذبة، وبالقلة الواحدة لا يمكن أن تستقيم الأمور لها كامة، ولنا فيما يتقاذفنا من الأهوال والنكبات عظة وعبرة، حتى أصبحت دنينا اليوم عبارة عن جحيم لا تطاق فيها الحياة، وكل امرئ يود لو كان غير موجود على ظهر البسيطة، كأننا في يوم المحشر والميعاد¹»، ولا شك أن للخطابي بتحذيره لمآل المجتمعات وأوضاعها المزرية رؤية تتجاوز البعد الفردي الاعتقادي للإيمان إلى اعتبار المسألة العقدية فكرة محفزة لبناء مجتمعات تسمح بترجمة مقتضيات الإيمان ومقاصده إلى واقع عملي ينعكس على محيط الإنسان وأوضاعه.

وعليه يمكن القول؛ إن الخطابي يؤسس لأبعاد ملموسة للمسألة العقدية؛ بحيث يجدها الفكرة الرئيسية للنهوض بالمجتمعات من وهدهتها لتحقيق شهودها الحضاري؛ عبر انقذاف نور الإيمان في القلوب ليشعل المؤمنين همّة ورفعة نحو السمو ورفعة التوكل على الله، وهو ما حاول استثماره في إصلاح شؤون محيطه سواء بالمغرب أو بلارينيون أو بمصر.

المطلب الثاني: استثمار المعرفة العقدية للإصلاح عند محمد بن عبد الكريم الخطابي.

تمكن الخطابي بعد عودته النهائية من مليلية إلى منطقته بالريف الأوسط سنة 1920 للصدع في الناس بضرورة الصد لكل الظواهر السلبية التي استشرت في المجتمع الريفي، والتي يصف الخطابي بعض جوانبها في مذكراته بقوله: «كان الريفيون وقت وفاة الوالد كما كان قبله في حالة الفوضى والتقاتل والنهب والتعدي وضياح الحقوق وعدم الأمن على النفس والمال²»، مما كان له الأثر المباشر في الانفلات الأمني وانتشار الجريمة، وهي السمة التي غلبت على قبائل الريف طيلة سنوات امتدت إلى أزيد من ثلاثين سنة عرفت بالريفوبليك، والتي يصف حالها العربي اللوه بالقول: «هذه القبائل كانت تعيش في فوضى لا تخطر بالبال، ولا يتصورها إلا من عاش أحداثها، وذاق آلامها وقاسى ويلاتها³»، ومن الجدير بالذكر أن هذه الحالة الغريبة التي نشأت بسبب انحراف القيم الأصيلة عن مجالها الرئيسي هي التي سيعمل الخطابي على تحويلها نحو الإصلاح عبر استثمار موجبات هذه القيم المبنية على أسس العقيدة الإسلامية التي

¹- محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال أفريقيا 1920م-1963م (وثائق ومذكرات)، حسن البدوي، ص 607.

²- مذكرات لاريونيون، محمد بن عبد الكريم الخطابي، تحقيق تعليق وتقديم عبد المجيد عزوزي وآخرون، دار أبي رقرق، الرباط، ط 1، ص 82.

³- المنهال في كفاح أبطال الشمال، العربي اللوه، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط 2، ص 37.

بدأت تندثر مظاهرها العمرانية؛ حيث يذكر اللوه أن: «صفات الشجاعة والنزاهة والشهامة وسمو الهمة التي كان يتحلى بها أهل تلك القبائل، هي التي جعلتهم ينساقون إلى التناحر والتقاتل حفظاً لكرامتهم أن تدنس أو تفسد، فقد كانوا يتقاتلون على أتفه الأشياء وأخسها، لا لذات الشيء وقيمته، ولكن حماية للكرامة¹»، وهكذا انحرفت القيم الدافعة للبناء والإصلاح لتصبح سبباً لانحراف المجتمع عن بوصلته الطبيعية.

وقد أدرك الخطابي سوء الأوضاع التي آلت إليها المنطقة والمفاهيم العقدية الفاسدة التي طغت وأدت إلى تدهور الأحوال عبر التركيز على المسألة العقدية كشرط أساسي لانتشال تلك الأوضاع، وهي الفكرة التي انطلق منها لبث دعوته بين الناس بأسلوب واضح، تستوعبه العقول وتنتشي به النفس ويعلي الهمم، معتمداً في ذلك على «أصول الدين والشريعة بأنها معاملة وأمانة ونظافة ونظام وسلوك وأخلاق ومبادئ وشجاعة وكرم وعلم وبناء وعمران ورسالة في الحياة ووحدانية وإخاء وتسامح ومحبة ورحمة ووطنية²»، وهي المقاصد الأخلاقية العملية المستقاة من أصل العقيدة الإسلامية التي ندب الخطابي نفسه لبثها بين الأهالي مستعيناً بزماد المعرفة والثقافي والعلمي الواسع الذي حصّله بين أروقة جوامع تطوان وفاس، وأهليته الفكرية والعبرية السياسية التي استطاع من خلالها أن يستوعب الكثير من المتغيرات الحضارية، ليتم توظيفها لإصلاح العقل الجمعي المركون في زوايا الجهل والتخلف التي تحول دون نهضته.

فلا غرابة أن نجد بدايات الخطابي في إصلاح المجتمع الريفي وانتشاله كان مبدأها التركيز على العقيدة الإسلامية بما تحمله من دلالات أخلاقية تسهم في بناء المجتمع؛ ف«منذ أن حل بأجدير في عودته النهائية من مليلية، نراه برفقة والده حيثما حل وارتحل إلى الأسواق والقبائل داعياً إلى الوئام بين القبائل والتخلي عن قانون الثأر، والاستمسك بشريعة الإسلام³»، وعلى هذا الأساس العقدي بنى الخطابي مباشرة بعد وفاة والده، و«برز إلى الميدان وصار يتصل برجال القبائل وأعيانها يبث فيها روح الوطنية الحقيقية التي تتمشى مع دين الإسلام والشريعة المطهرة، ويستدل بالكتاب والسنة في جميع أحاديثه ومواعظه البعيدة المدى⁴»، وبهذا الاعتبار الديني والشرعي فقط أيقظ مجتمعه من حاله للنظر في القضايا المستقبلية التي سيتعرض لها؛ ف«لقد استطاع محمد بن عبد الكريم الخطابي نظراً لتمكنه من العلوم الدينية وتفقهه في شؤون التشريع والشريعة الإسلامية أن يوحد صفوف وأطراف وفئات القبائل الريفية

1- المنهال في كفاح أبطال الشمال، العربي اللوه، ص 37.

2- عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، محمد سلام أمزيان، ص 92.

3- عبد الكريم الخطابي التاريخ المحاصر، علي الإدريسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، 2010، ص 41.

4- أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي مذكرات عن حرب الريف، محمد عمر بلقاضي، مطبعة سلمى، الرباط، ط 2، 2006، ص 96.

بصفة عامة¹»، ويشكل بذلك القاعدة المركزية الأولى وهي الوحدة الجامعة التي تتقد عليها باقي التجليات الحضارية الأخرى.

ويبدو أن اهتمام الخطابي بالمسألة العقدية نابع من إيمانه الشديد بالآثار التي تعكسها في الأفراد والمجتمعات كما حصل إبان قيادته للريف، لتبقى إحدى أهم الخصائص التي تميزه في كل الظروف والأحوال التي سعى لتكريسها في النفوس، وجعل منها المنطلق والمحفز للعمل الميداني في المجالات الحياتية المتنوعة؛ لأنها الكينونة التي تضع للإنسان الرغبة الجامحة في نفسه لبذل أقصى درجات الإصلاح.

المبحث الثاني: مسالك المعرفة العقدية عند محمد بن عبد الكريم الخطابي وآثارها في الإصلاح السياسي والاجتماعي:

تتأسس المعرفة العقدية عند الخطابي على جملة من المسالك المنهجية التي مرّر من خلالها للتصورات العقدية المستقاة من الكتاب والسنة وشواهد التاريخ، وذلك بأساليب متنوعة تراعي طبيعة النفس البشرية التي استطاع أن ينفذ إليها، «بفضل مؤهلاته الشخصية، وقدراته الفائقة على الحوار والتنظيم، مما جعله يتبوأ مكانة مرموقة بين ذويه وعشيرته²»، تجلّى ذلك في استثماره لتلك المسالك التي تعددت بين المحاضرات التي كان يلقيها، وأساليب البيان التي يستعملها، وإرشاداته المفعمّة بالحكم والأمثلة، وكتابات المتعددة بين المراسلات والمذكرات والبيانات والتصريحات، وهي معالم تجسد التكامل بين المكون الثقافي الذي يستقيه الخطابي من البعد العقدي، وبين المكون الحضاري المجموع في الإمكانات المادية والعمرانية القائمة التي تنازعها صنوف الدهر وأردتها عاطلة عن التفاعل الحضاري مع التحولات التي يشهدها العالم في حينه، فجعل الخطابي من تلك الوسائل منهجا عمليا لتحريك فكر الإنسان لينعكس على تلك الإمكانات ويثمر تألقا ونموا مطردا.

المطلب الأول: مسلك المحاضرة والبيان والإرشاد:

كان الخطابي غالبا ما يستثمر فرص تجمع الناس ليعبث فيهم النشاط الروحي الذي يمكنه من تثبيت المفاهيم والتصورات الدينية الصحيحة البعيدة عن الخرافات التي تستحكم في النفوس لتتنقاد لها مما يعيق من عجلة الإصلاح، وعلى أساس هذا الأمر أضحي بيان روح الدين مرتكزا في خطبه ومحاضراته التي

¹ - حقائق عن مجدد الإسلام محمد عبد الكريم الخطابي، محند البخلاحي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2009، ص90.
² - شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، محمد الرايس، إعداد وتقديم عبد الحميد الرايس، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص460.

يلقيها في المساجد والتجمعات والأسواق سائحا بإدراك الناس نحو الأمثلة الحية والشواهد التاريخية التي تعزز من أقواله؛ فكانت محاضراته كلها دعوة «إلى الاتحاد الذي هو ضمان كل عمل في هذا المضمار، وأن يتمسكوا بالكتاب والسنة في جميع أعمالهم، وأن يتحدوا وينسوا الأحقاد، ويتجهوا كلهم صفا واحدا لمحاربة عدوهم الوحيد وهو الاستعمار كيفما كان، وينظموا صفوفهم، لأن النجاح لا يكون إلا بالنظام، ويبين لهم كيف يكون ذلك النظام»¹، ويبدو أن الخطابي اعتمد بشكل كبير على المعارف العقدية في إصلاح النفوس وتوجيهها نحو معالي الأمور، مما كان له الأثر البارز في انقياد الناس له، وترفعهم عن كافة الممارسات السابقة التي كانت تعيق من عملية الإصلاح، فكان يندفع «بإثارة الضمائر وإيقاظ الحماس فيها، ضاربا على الوتر الحساس عند الجميع، حتى يترك القضايا التي يتركها ملموسة للجميع، يخيل إليهم أنهم يبصرونها رأي العين»²، وهو الأمر الذي كان المحيطين به يجدون آثاره في نفوس الحاضرين؛ ولعل شهادة المجاهد اليزيد حمادي بن الحاج علي وهو أحد الذين عايشوا هذه المعاني العقدية تفيد في هذا المقام؛ حيث يقول: «ما رأيت أحدا أثر في نفسي روحيا مثله، فلو بقيت بجانبه أياما بلياليها لا تمل حديثه ومنظره الجسماني»³، وعندما سُئل عبد السلام حدو محمادي وهو أحد الذين التحقوا بالخطابي عن سبب انضمامه للحرب مع الخطابي، قال: «الحرب علينا حق، من أجل العقيدة»⁴، ومن هنا تظهر مدى التأثير الذي كان يحدثه الخطابي في الحاضرين.

وكان من سمات الخطابي ونبوغه في تبیان المعاني المراد تمريرها في الحاضرين هو اقتناص المواقف لضرب الأمثلة المجسدة لإحدى التجليات العقدية؛ فيرسم لهم خطوطا عريضة لإرشادهم نحو فلسفة إصلاح النفس وتهذيبها من الأدران العالقة كشرط أساس لصناعة الإنسان الفاعل والمنتج؛ فيتحدث في إحدى اللقاءات عن جدلية العلاقة القائمة بين ما يعتري الإنسان من شهوات تميل به عن تحقيق السمو الروحي، فيقول لهم: «تصوروا مذاق الشيء الذي تشتهونه كيف يكون في أفواهكم حلوا، وتذكروا كم يدوم ذلك المذاق، إنها بضع لحظات، ثم تصوروا كيف يكون مصير ذلك الشيء المشتته بعد أن ينزل إلى المعدة، عليكم أن تفهموا أن لا قيمة للشيء الذي تشتهونه إلا أثناء لحظات قليلة، فهل يعيش الإنسان كل وقته عبدا لبضع لحظات؟»⁵ ليخلص الخطابي إلى نتيجة مفادها: «إنه بالانتصار على شهواتنا نحقق آدميتنا، بهذا نرتفع من مستوى البهيمة إلى مستوى الإنسان، أي الكائن المتمتع بالكرامة»⁶، وبهذه الخطة

¹ أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي مذكرات عن حرب الريف، محمد عمر بلقاضي، ص 98.

² حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، أحمد البوعياشي، مطبعة دار الأمل، طنجة، 1974، ج 2، ص 49.

³ شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، محمد الرايس، ص 347.

⁴ محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، محمد العربي المساري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2012، ص 153.

⁵ محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، محمد العربي المساري، ص 154.

⁶ محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، محمد العربي المساري، ص 154.

ينسج الخطابي رؤية منهجية لبلوغ الإنسان مراتب عليا من الارتقاء الروحي الذي يجعله في تألق دائم وسعي متواصل نحو تحقيق ما يسمو إليه.

ومن عمق الأحداث التي كانت تشهدها المنطقة في مواجهاتها للتحديات الأجنبية الاستعمارية لإفراز دينامية جديدة مغايرة لسابق العهود، والتي كان الخطابي يضع بناءها على أسس الحقائق العقدية لتتغرس في الوجدان، ويلقي في الضمائر ما تطمئن به النفوس؛ فأثناء اشتداد القصف على المنطقة طلب رجل «أن يعود إلى قريته، لرؤية أفراد أسرته، وفي قريته قتل بقنبلة أطلقتها طائرة معادية، فاستغل ابن عبد الكريم هذا الحادث قائلًا لهم: إن الموت إذا جاء لا يرد في مكان يوجد فيه الإنسان، فالحياة هبة من الله، والموت لا يأتي إلا بغتة، قيل إنه تلا عليهم قول الله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [سورة النساء، الآية 78]¹»، وهذه المعاني العقدية الجميلة التي كان يغرسها الخطابي في الناس بيانًا وإرشادًا وتوجيهًا هو ما سيُتوجّه أحد المعمّرين الذين نهلوا من الخطابي عندما قال: «إننا مع عبد الكريم، كنا نعيش بخواتمنا وتصرفاتنا في عالم علوي، وإذا كانت أقدامنا تطأ الأرض فإنما في الطريق إلى الجنة، كنا نعيش فعلا بمشاعر أهل الجنة، بما فيها من راحة ضمير وإخاء وطهر²»، وهذا ما يؤكد على الأثر الإيجابي الذي تركته تربية الخطابي العقدية لرجاله في هذه المرحلة التاريخية من حياته.

المطلب الثاني: مسلك الكتابة والتدوين والمراسلة:

دأب الخطابي على تدبيج كافة المحطات التاريخية من حياته، وذلك في مذكراته غير المنشورة التي ناهزت ثلاث آلاف صفحة مسجلا فيها كل التفاصيل والأحداث التي عايشها؛ ويمكن القول أنها تمثل مدونة عامة لحاضر العالم الإسلامي بما كان يُعتمَل فيه من مخاض عسير للخروج من وهدة التخلف، فلا مناص من اعتماد الخطابي على منهج الكتابة لاستنهاض الناس من غفلتهم، ليجعل منها الوسيلة الفعّالة للتواصل مع الأمم الخارجية، وكذا لمراسلة الجهات والشخصيات وإيقاد شعلة الأمل في نفوسهم وبالتالي ترسيخ المبدأ العقدي الصحيح الذي رانت عليه صنوف التواكلية والانهازمية؛ ففي رسالة له إلى المغاربة يستحث فيها جموع الناس للوحدة العقدية التي تربط بينهم، ومن خلالها يعبر عن مقتضياتها العملية، فيقول: «إخواننا المسلمين، ندعوكم باسم الرابطة الدينية أن تهبوا جميعا إلى فك رقابكم من عدوكم الذي يريد أن يستعبدكم بالكيد والعدوان، إنه والله لخزي عظيم أن يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه، وأن يحتمي بحماه، فإن كان هذا طمعا في رضاه فالله عز وجل يقول: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى

¹ - محمد بن عبد الكريم الخطابي نادرة القرن العشرين في قتال المستعمرين، محمد بن عمر بن علي العزوي الجزنائي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2007، ص27.

² - محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، محمد العربي المساري، ص155.

حتى تتبع ملتهم ﴿ وإن كان خوفا من سطوته ﴾ ﴿ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾، وإنكم تعلمون أن الفوز والنصر للحق وهو في جانب المسلم الذي يحامي عن دينه ووطنه، وأن كلمة الله هي العليا، وحزب الله هو الغالب لا محالة، طال الزمان أم قصر، فقوموا قومة رجل واحد وأعقدوا الخناصر على مناجزة العدو فقد أصبح على شفا الهلاك، وعما قليل ينخذل الخذلان الأخير، ويسقط السقوط الأبدي الذي لا نهوض له منه، وينسحب مطرودا عن هذه الأرض الشريفة التي ما بقي له فيها مقيل ولا مقر¹، فهذا النموذج الكتابي للخطابي يجسد مدى استثماره للأبعاد العقدية وما يتفرع منها في إصلاح ما انخرم من أمر المسلمين، منطلقا في ذلك من الرابطة الدينية كإحدى مقتضيات العقيدة في نسج وصلة الاتحاد من جديد أثناء قيادته للحرب التحريرية في العشرينيات من القرن الماضي.

وعلى نفس المنوال صار الخطابي في وضع الخطة الاستراتيجية لتحرير شمال أفريقيا من ربقة الاستعمار عندما حلّ بمصر، والتي اشتملت على تفصيلات شديدة تنم عن وعي سياسي وفكري وروحي عال، ومعرفة شديدة بالثقافة العسكرية الحديثة، وذلك عندما أدمج المعرفة العقدية في الاستراتيجية العسكرية جاعلا منها الفكرة الأساسية للعقيدة العسكرية؛ وقد فصل في ذلك بقوله: «السلاح الأول للمقاتل هو عقيدة الإيمان بالله، والتنظيم العسكري هو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وبغير هذا لا يصلح أي نوع من السلاح والتنظيم، ولو كان في يد الجندي أفتك ما ابتكروه من سلاح التدمير²» ويضيف الخطابي في تبیان أثر العقيدة الإسلامية في ثنائية النصر والهزيمة: «إن ابتكار السلاح الفتاك سبب من أسباب ضعف الإيمان، ودليل على أن الجندي جبان، أو مساق بالإكراه، فعلى جماعة الإنقاذ أن تعتمد على السلاح الحقيقي وهو الإيمان بالله، وبرسالة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، في تحري الإنسان من عبودية الإنسان الشاذ³»، وهي رسالة بقدر ما وُجّهت في سياق التأثير العقدي لمساعي الدفاع عن الأرض من الاحتلال، إلا أنها تجلي منزلة العقيدة عند الخطابي وحضورها القوي في كافة مجالات الحياة.

وعلى هذا، نسج الخطابي في كتاباته المتعددة، سواء في المقالات التي كان يكتبها للصحف والمجلات، أو في تصريحاته ولقاءاته الصحفية، أو في رسائله المتعددة نحو مختلف الجهات، أو لمقدمات الكتب التي ينسجها لمؤلفيها، ويبحث فيها توجيهاته وتصوراتهِ حول مختلف القضايا السياسية والاجتماعية من أجل إصلاح ما اعترها من نقص، فلم يتردد يوما أثناء تدوينه من التأكيد على المسألة العقدية وضرورة معرفة مقتضياتها والعمل بها؛ لأنها الفلسفة العملية التي تتأسس وفقها التصورات العامة

¹ - أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، عبد الله كنون، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1978، ط2، ص60.

² - محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، محمد أمزيان، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 2010، ص166.

³ - محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، محمد أمزيان، ص166.

لنسج كافة المظاهر العمرانية المادية؛ فلم يبارح الخطابي للتأكيد على العقيدة في كتاباته طيلة حياته كأساس إصلاحي إلى آخر لحظات حياته؛ فقد كتب سنة 1962 بيانا حول مجموعة من القضايا التي عرفها المغرب تأكيدا على هذه المسألة بقوله: «إن الأمة المغربية كافحت، لتعيش حرة، حرة في عقيدتها، وفي إقامة شعائر دينها، وفي تسيير شؤون بلادها»¹، وبهذا تتضح الصورة العامة التي اتخذتها المسألة العقدية في مشروع الخطابي، والتي كان لها الأثر في إصلاحات سياسية واجتماعية عديدة.

المبحث الثالث: نماذج من الإصلاح السياسي والاجتماعي عند محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال آثار المعرفة العقدية:

أثمرت رؤية الخطابي العقدية جهودا إصلاحية شملت ميادين سياسية وأخرى اجتماعية، ابتنت على مجموعة من القيم التي كانت تسهم للانتقال بمختلف الأوضاع السياسية التي تعرض لها المغرب جراء قرون من وهدة التخلف والتراجع الحضاري إلى الحال التي يستطيع من خلالها مجابهة التحديات واستيعاب التحولات والمراهنة على خلق فضاء واسع من ابتكار ما يلزم من مؤسسات اجتماعية متعددة وقوانين تضبط السير العام لها، ومواقف سياسية أفرزت دينامية فعالة اتجاه الاحتلال بدفع الصائل عن السيادة المنزوعة تمثلت في المشاركة السياسية في فترة شبابه بفاس وقيادته لمنطقة الريف وبيعته أميرا للجهاد من طرف العلماء والأعيان والنخب، وتتبعه لقضايا المسلمين في العالم أجمع في منفاه بلارينيون، وتفعيله لمكتب تحرير المغرب العربي وإحداثه لجيش تحرير المغرب العربي بمصر، بالإضافة إلى مشاركاته العديدة ومساهماته في مختلف القضايا السياسية للمسلمين التي طفت في بلدان إسلامية كفلسطين وباكستان وباقي البلدان الأخرى.

المطلب الأول: نماذج من الإصلاح الاجتماعي:

تعددت مظاهر الإصلاح للمجتمع الريفي الذي كان يعج بمختلف مظاهر التفكك والتخلف إبان قيادة الخطابي له في فترة العشرينيات، حيث تمكّن من تغيير معالم هذا المجتمع بفضل جهوده التربوية التي كان يؤسس بها لانبثاق مجتمع جديد قوامه الأمن السلمي باعتباره الركيزة الأولى التي سيبني عليها الإصلاحات الأخرى؛ «فلقد استجاب الناس للدعوة إلى دروس وعظه وإرشاده وتربيته وتثقيفه وتعليمه، وسرعان ما بدت لهم ظواهر المحبة والفضيلة والسلام، وأخذوا يتبادلون الثقة والحديث في مختلف الشؤون وكأنهم أفراد أسرة مترابطة»²، وهذه الثمرة الاجتماعية نتيجة حتمية للمقاصد العقدية التي تؤكد

¹ - محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال أفريقيا 1920م-1963م (وثائق ومذكرات)، حسن البدوي، ص618.

² - عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، محمد سلام أمزيان، ص90.

على ضرورة القيام بواجب الأخوة الإيمانية، وهكذا يصف أحد المقربين من الخطابي معالم هذا التغيير الاجتماعي بقوله: «إنه مجتمع جديد حقا في كل مظاهر حياته السياسية والاقتصادية، فلا لصوصية ولا نهب ولا سلب، سلام دائم، وأمن شامل، وحب كامل، ولا أنانية ولا عنصرية ولا فوضى، إنه مجتمع سليم من عوامل التحلل والانحلال والضعف والاستسلام، مجتمع يؤمن بالتعاون للصالح العام، وفيه إحساس بضخامة المسؤولية¹»، ويورد علال الفاسي بعد لقاءه بالخطابي بمصر بعض اللوحات الإصلاحية عن هذه الفترة التاريخية ومدى التوافق الاجتماعي الذي حصل عندما قال: «لقد أخبرني الأمير عبد الكريم أنه وصل الاتفاق بين الأفراد والجماعات إلى حد أن ذوي الثأر الذين لم يكونوا يكلمون رazziهم تآخوا معهم، وتناسوا كل ما بينهم من حزازات، وسامحوا قاتلي آبائهم وأقاربهم في سبيل المثل الأعلى الذي بعثه هذا الزعيم النبيل في نفوسهم²»، وذلك بفضل آصرة العقيدة وتمكّنها من القلوب والعقول، حتى أوضحت هي المرجع الأساسي في نظام العلاقات الاجتماعية.

ومن أجل السير قدما بالأوضاع الاجتماعية التي بدأت معالمها تتضح فقد اقتضى النظر ترتيب البيت الداخلي وتنظيمه وفق قواعد عصرية تراعي الخصوصيات الحضارية، وتتطلع إلى مستقبل بمؤسسات اجتماعية يطبعها القانون والالتزام والمسؤولية، ولما تم الاتفاق بين أعيان القبائل وعلماء الريف ونخبة التجار علىبيعة الخطابي أميرا للجهاد سنة 1923 ضد السيطرة الأجنبية، التأم المجتمع بذلك وحصلت الطمأنينة، و«احتيج إلى ما لا بد منه من تنظيم إدارة إمارته التي لا بد من تأسيس بنيانها على دعائم الارتباط بحبل الاتصال بالمخابرة معه بواسطة وزرائه، وأعيان الريف وغيرهم داخل الريف وخارجه، بعد تعيين الوزراء الذين كانوا يدا واحدة في تدعيم أركان هذه الإمارة، فصدر الأمر منه في تنظيم الإدارات والمحاكم، واتساع مناطقها كلما سنحت لهم فرصة في المحلات المهمة³»، وأصبحت المسألة الاجتماعية بموجبها يتم تنظيمها وفق قواعد تم إرساءها لتعين المجتمع بأفراده على العيش السليم، وقد شملت هذه الإصلاحات كافة المجالات الحيوية للحياة منها؛ الهيكل العسكرية، وإصلاح القطاع الصحي، ووضع برنامج تعليمي، وإنشاء الطرقات، وتنظيم الأسواق، والاحتكام للمحاكم الشرعية، وترتيب المرتبات، وتهذيب العادات والتقاليد لتوافق المقاصد العقدية والشرعية الإسلامية، والقضاء على الأعراف التي قوّضت المجتمع؛ فقد أصبحت المرجعية التي تتأسس عليها كل الإصلاحات الاجتماعية تستند بشكل مباشر على أحكام الشرع ومقتضياته العملية، الرامية لتحقيق النهوض الحضاري، و«تغلّغت لتشمل جل

1 - عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، محمد سلام أمزيان، ص 90.

2 - الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، علال الفاسي، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1948، ص 117.

3 - الظل الوريث في محاربة الريف، أحمد سكيرج، إعداد ومراجعة عبد المجيد عزوزي، طبعة سيلبي أخوين، طنجة، ط 1، 2022، ص 136.

المؤسسات الاجتماعية الريفية، وكل جوانب حياة المجتمع الريفي وطوقوسه، ففي المجال الديني مثلاً، أصبح أداء الصلوات الخمس إلزامياً، الأمر الذي يعتبر جديداً¹ بالنسبة للمجتمع، وهو نفس ما قام به مع مسألة الزكاة؛ حيث خصّصها بمؤسسة يقوم على شؤونها رجال يسندون لإحصاء من يتوجب عليه، و«هكذا يبدو التنظيم الداخلي وعلى مختلف مستوياته مساهمة لنموذج الدولة العصرية المنفتحة على المنجزات الحضارية للقرن العشرين، والتمسكة في نفس الوقت بتقاليدها وأصالتها»²، وعلى ذلك يمكن اعتبار إصلاحات الخطابي الاجتماعية نموذجاً فريداً في السعي الحثيث لإخراج البلاد من أسر التخلف إلى تكريس جوانب الإبداع، وخوض غمار الابتكار على الرغم من التحديات التي أحاطت به؛ وهذا من الخصائص الكبرى التي ميّزت الخطابي؛ وهي قدرته على تفعيل قابلية تحقيق المقاصد العقدية والشرعية في تحريك دينامية المجتمع وإصلاح نقائصه برويته التي تنمّ إدراك بأهمية المسألة الاجتماعية في النهوض بالمجتمع، وهو الأمر الذي لم يبرحه في باقي محطات حياته؛ فقد اتخذت موقعا بارزا في مشروعه الحضاري.

المطلب الثاني: نماذج من الإصلاح السياسي:

مثّلت المسألة السياسية جانبا معتبرا في مسارات الخطابي منذ مرحلة شبابه إلى حين وفاته؛ فهو السياسي الذي حنكته الأحداث والتجارب، والخير بشؤونها وخباياها والذي استطاع أن ينسج قواعد لفن الممارسة السياسية أرساها في عدد من المواقف والتصريحات والرسائل، وهو الأمر الذي أفرز إصلاحات عميقة في البنية السياسية برُمّتها لمنطقة الريف التي قادها الخطابي وتركت أثرا بارزا فيها، حيث سجّل عالم الاجتماع الفرنسي روبرت مونطاني معالم آثار الإصلاحات السياسية التي عرفتھا المنطقة طيلة سنوات قيادة الخطابي بالقول: «الأحداث السياسية والعسكرية في الريف، والتي امتدت على مدى السنوات الخمس الماضية وفاجأت إسبانيا وفرنسا وجميع أوروبا، أدت، على مستوى هذه الزاوية الصغيرة من الإمبراطورية الشريفة، [أي المغرب] إلى حدوث تغييرات عميقة على مستوى المواقف الاجتماعية والسياسية، إلى درجة أن وجه البلاد لم يعد بالإمكان التعرف عليه كلية وذلك بسبب كونه قد صار مختلفا تماما عن ذلك الذي نجده في المحمية الخاصة بنا [أي الجانب المغربي الذي احتلته فرنسا]³»، وهي شهادة تكفي لمعينة حجم الإصلاحات التي وظّدها الخطابي بالريف، والتي شملت هيكلة

¹- أيث ورياجر قبيلة من الريف المغربي دراسة إثنوغرافية وتاريخية، دافيد منتكومري هارت، ترجمة وتقديم وتعليق محمد أونيا وآخرون، طبعة جمعية صوت الديمقراطيين المغاربة، هولندا، ط1، 2016، ج2، ص747.

²- محمد عبد الكريم الخطابي القائد الوطني، عز الدين الخطابي، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، 2003، ص41.

³- حرب الريف بالمغرب 1921-1926 وجهة نظر إنجلترا للأحداث، ريتشارد بينيل، ترجمة جواد رضواني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2022، ص176.

البنى السياسية العتيقة التي كانت تسير بها القبائل شؤونها، وأفرزت أنظمة جديدة في التسيير والتدبير السياسي قوامه على الوحدة الفكرية والعقدية، ومقصده إقامة العدل بين الناس والسير بهم نحو سبل السلام، وهو النص الذي حملته وثيقة البيعة الشرعية التي أسندت للخطابي القيام بشؤونهم السياسية والرجوع إليه في تقدير أمورهم، حيث جاء فيها: «إننا بابعناك وقلدناك لتسير بنا بالعدل والرفق والوفاء بالصدق، وتحكم بيننا بالحق، كما قال تعالى لنبيه في محكم وحيه: ﴿يا داوود إنا خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق﴾، وقال تعالى وقوله الحق: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾¹»، ولا شك أن هذه الدلالات الشرعية التي تستند على شرط تحقيق العدل يمثل نموذجا من الإصلاحات التي سار عليه الخطابي في محاولاته المتكررة من أجل انتشال الأوضاع السياسية لبلاد المغرب والتي يلخصها الخطابي في نداء له إلى كافة المسلمين بالمغرب في غشت سنة 1925 بالقول: «إن غايتنا الوحيدة ومقصودنا المنشود هو طرد الأعادي من تراب المسلمين والوصول إلى إصلاح شؤوننا ماديا وأدبيا، لنحيي ما اندرس ونجدد مجد الأسلاف، وما ذلك ببعيد على رجال المغرب ومفكره إن قاموا قيام رجل واحد، وعملوا ما يحقق هذا الأمل بالقول والفعل²»، وهو ما يكشف عن غاية الإصلاحات السياسية التي دأب الخطابي على وضعها وإحداثها إزاء التحديات التي يجدها أو أمام ما يستجد من قضايا يُتطلب منه دراسة جوانبها لإيجاد الحلول المناسبة لها، على غرار ما أرساه من مؤسسات وزارية تتولى مجالات قطاعية متنوعة، وإدارات همت جوانب الجيش وترتيباته، وإحداث قوات للحفاظ على الأمن الداخلي، وترجمة مبدأ الشورى إلى مجالس متنوعة مثل مجلس للأعيان، ومجلس للأمة للمداولة في الشؤون القضايا المطروحة، وغيرها الكثير مما حفظته المدونات التوثيقية لهذه المرحلة من حياة الخطابي.

وفي مصر، وجد الخطابي نفسه أمام أوضاع سياسية مزرية سواء ما تعلق منها بطبيعة المشاريع التي تُقدم من طرف النخب التي تتولى عملية الإصلاح، أو ما تعلق بالوسائل التي يُضطلع بها لتغيير تلك الأوضاع وإصلاحها، وبمجرد ما أعلن الخطابي عن جملة من الأفكار الإصلاحية «تحول الزعيم الريفي إلى قطب سياسي مرموق، وإلى زعيم ثوري لا يجادل في زعامته أحد، ومنازة يهتدي ويسترشد بنورها كافة المكافحين والمجاهدين في كل بقاع العالم³»، حيث أثمرت جهوده تأسيس مكتب تحرير المغرب العربي بِنَفْسٍ جديد، «وكان الأمير عبد الكريم الخطابي هو مركز نشاط وتوجيه هذا المكتب، حتى وإن كان نشاطه

¹ - حرب الريف بالمغرب 1921-1926 وجهة نظر إنجلترا للأحداث، ريتشارد بينيل، ص 280.

² - تاريخ تطوان، محمد داود، مراجعة وإضافات حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط 1، 2009، المجلد 11، ص 247.

³ - محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب، زكي مبارك، طبعة فيديريانت، الرباط، ط 1، 2013، ص 27.

قد اقتصر على الناحية السياسية¹، إلا أنه بقي وفيا للمبادئ العقدية التي كان يقوم بها في الأعمال السياسية على المنهج التربوي القائم على المرجعية الإسلامية، فقد كتب عن الدوافع التي أدت به إلى تأسيس هذه اللجنة: «إن يوم الخلاص قريب، قريب إذا وفيتم بهذا الشرط والتزمت التقييد به والعمل عليه والدعوة إليه، كل بمفرده لا فرق بين كبير وصغير ولا بين غني ولا فقير، ولا بين رئيس ومرؤوس، ويكفينا دليلا على صحة هذا قول الله العام بما فيه مصلحة عباده المؤمنين الذين سماهم إخوة: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾، وقوله عليه الصلاة والسلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على ما سواهم"²، وعلى هذا الأساس العقدي ألزم جيش التحرير المغاربي المناطق به السعي الحثيث لانتشال الأوضاع السياسية لكل من المغرب والجزائر وتونس بالصلاة، حيث «تجب المحافظة على الصلاة بإقامتها في أوقاتها كلها بقدر الإمكان، ويعاقب تاركها بعد الإنذار بهذه العقوبة³»، وقد كانت المعرفة الإسلامية العامة حاضرة بقوة في هذه الاستراتيجية الحربية، وذلك عندما ألزمهم بمعرفة «فرائض الدين والعبادات والآداب العامة والتاريخ الواجب معرفته، من سيرة الرسول الكريم [عليه الصلاة والسلام] والصحابة والخلفاء الراشدين، والقواد المشهورين في غزوات العرب وفتوحات المسلمين⁴»، وعلى هذا أساس العقدي والمعرفي انبنت كافة التجليات الإصلاحية للخطابي؛ فهي المنطلق المرجعي للتصورات الكبرى وعليها ينبثق السلوك الفردي والجماعي، لتنعكس على الممارسة الإصلاحية في المجالات السياسية.

1- عبد الكريم الخطابي، جلال يحي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968، ص 127.

2- محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، محمد أمزيان، ص 157.

3- محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، محمد أمزيان، ص 172.

4- محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، محمد أمزيان، ص 173.

خاتمة:

بعد هذه الجولة في رحاب مسارات محمد بن عبد الكريم الخطابي المتعددة، والتي أبرزت الحضور القوي للمسألة العقدية في كافة مراحل حياته، مما كان له الأثر البارز على مختلف الإصلاحات التي تولاها، وعليه يمكن القول أن العقيدة الإسلامية في رؤية الخطابي هي الأساس الذي تقوم عليه تلك الإصلاحات؛ ومن أصولها وأفكارها تنبني عليها، وفاعلية تلك الإصلاحات مرده إلى مدى تفعيل مقتضيات هذا الأساس، وما يترتب عنها من أفكار وأصول، ومن خلاله فقد توصل هذا البحث إلى جملة من الخلاصات والنتائج وهي:

أولاً: التحصيل العلمي المبكر للخطابي وتألقه الفكري والعلمي، وتدثره بالثقافة الإسلامية الأصيلة وانفتاحه على الأفكار العاملة في العالم الإسلامي والأوروبي، أسهمت في بناء تصور فكري حول الكون والحياة والمجتمع قوامه المعرفة الإسلامية.

ثانياً: تعتبر المعرفة العقدية الموجه الأساسي في عملية الإصلاح في فكر الخطابي، وعلى حسب استيعاب هذه العقيدة وتمكنها من العقول والنفوس يحصل التأثير. وتنضبط الأفعال وتستجيب الرغبات.

ثالثاً: يزخر الإنتاج الفكري للخطابي برؤية حضارية تجتمع تحتها كافة الأفكار الذاتية والهويات المنفردة، وتتأسس على البعد العقدي الإسلامي ومقتضياته العملية.

رابعاً: تبرز المسارات والأحداث والمحطات التاريخية للخطابي عن تجليات متعددة من الإصلاحات التي شملت كافة جوانب الحياة، مما أثمر نهضة حضارية.

خامساً: أخذت المسألة الاجتماعية جانبا من مهمما من إصلاحات الخطابي؛ فهي التي كانت سببا معيقا للكثير من رغبات التغيير والإصلاح، ومن خلالها أرسى الخطابي جملة من المشاريع الإصلاحية في ميادين ترتبط بشكل مباشر بالإنسان.

سادساً: كما أحدث الخطابي دويا قويا في العالم أجمع، وذلك لطبيعة الأفكار السياسية وما ترتب عنها من إصلاحات تنم عن عبقرية خالدة ورؤية ثاقبة، بجمعه بين المعرفة العقدية الأصيلة وبين الرؤية الحضارية القوية لانتشال الأوضاع السياسية في الريف والمغرب والدول المغاربية وكافة مناطق العالم الإسلامي.

سابعاً: للمعرفة العقدية في رؤية الخطابي دور مهم في عملية الإصلاح والتغيير، لما تحلمه من تبعات ترفع الإنسان نحو التألق، وتدعوه نحو الرفعة والسمو.

وعلى سبيل الختم؛ فقد كان للمعرفة العقدية أثر بارز في الإصلاح الاجتماعي والسياسي الذي قاده الخطابي، وما الصور التي تم إيرادها سوى نموذج مصغر من ذلك، وإلا فيعذر سرد كل التجليات والصور النموذجية لتعددتها وكثرتها، واستحالة الإحاطة بها

لائحة المصادر والمراجع:

- رصد الخاطر خواطر وأفكار حول أزمة الحضارة المعاصرة، المهدي بن عبود، جمع وترتيب ومراجعة محمد الدباع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2023.
- عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، محمد سلام أمزيان، مطبعة المدني، القاهرة، 1971.
- محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال أفريقيا 1920م-1963م (وثائق ومذكرات)، حسن البدوي، ماهي للنشر والتوزيع، مصر، ط1.
- مذكرات لاريونيون، محمد بن عبد الكريم الخطابي، تحقيق تعليق وتقديم عبد المجيد عزوزي وآخرون، دار أبي رقرق، الرباط، ط1.
- المنهال في كفاح أبطال الشمال، العربي اللوه، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط2.
- عبد الكريم الخطابي التاريخ المحاصر، علي الإدريسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 2010.
- أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي مذكرات عن حرب الريف، محمد عمر بلقاضي، مطبعة سلمى، الرباط، ط2، 2006.
- حقائق عن مجدد الإسلام محمد عبد الكريم الخطابي، محند البخلاحي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2009.
- شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، محمد الرايس، إعداد وتقديم عبد الحميد الرايس، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2011.
- حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، أحمد البوعياشي، مطبعة دار الأمل، طنجة، 1974.
- محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، محمد العربي المساري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2012.
- محمد بن عبد الكريم الخطابي نادرة القرن العشرين في قتال المستعمرين، محمد بن عمر بن علي العزوزي الجزنائي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2007.
- أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، عبد الله كنون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1978.
- محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، محمد أمزيان، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 2010.
- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، علال الفاسي، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1948.
- الظل الوريث في محاربة الريف، أحمد سكيح، إعداد ومراجعة عبد المجيد عزوزي، طبعة سيلبي أخوين، طنجة، ط1، 2022.
- أيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي دراسة إثنوغرافية وتاريخية، دايفيد منتكومري هارت، ترجمة وتقديم وتعليق محمد أونيا وآخرون، طبعة جمعية صوت الديمقراطيين المغاربة، هولندا، ط1، 2016.
- محمد عبد الكريم الخطابي القائد الوطني، عز الدين الخطابي، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، 2003.

- حرب الريف بالمغرب 1921-1926 وجهة نظر إنجلترا للأحداث، ريتشارد بينيل، ترجمة جواد رضواني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2022.
- تاريخ تطوان، محمد داود، مراجعة وإضافات حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2009، المجلد 11.
- محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استغلال المغرب، زكي مبارك، طبعة فيديرانت، الرباط، ط1، 2013.
- عبد الكريم الخطابي، جلال يحيى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968.